الحلقة السادسة

رؤيا ملك مصر الخالدة

تفسير يوسف للرؤيا

رفض يوسف الخروج من السجن إلا بعد ظهور براءته

الملك يتبين براءة يوسف

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة السادسة

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ .

أشعار الحلقة السادسة

مَلِكُ البلاد لقد رأى رؤيا تهم العالمين ١
رؤياه كانت مثل فلق الصبح للمتأولين ٢
فأفاق مذعورًا فنادى أهله ومقربين ٣
قال: اسمعوا قولى ، وكونوا للمقالة مدركين ٤
رؤيا رأيتُ ولا أزال لها من المتحيرين ٥
من سبع بقرات عجاف فى عيون الناظرين ٦
يأكلن سبعًا مِثْلهنّ من السّمان المشْحمين ٧
وسنابلٌ سبعٍ وسبعٍ مثلهنْ متناقضين ٨
اليابسات أكَلْنَ سَبعَ اليانعات على اليقين ٩
هذا المليك يحدثُ العلماء والمتفقهين ١٠
من ثَم قال لهم : فأفتونى ، وكونوا صادقين ١١
قالوا له : أضغاث أحلام تجىء النائمين ١٢
بل إننا لسنا بتأويل الحديث بعالمين ١٣
قد كان صاحب يوسف فى القوم بين الحاضرين ١٤
سمع الحديث ، تذكر الأحلام فى السجن المهين ١٥
وتذكر الصّدّيقَ فى تأويله للحالمين ١٦
تأويله ، قد كان صدقًا ، يشبه الوحى المبين ١٧
فورًا توجه للمليك فكان ساقيه الأمين ١٨
أوحى له عن يوسف الصديق ذى العلم المتين ١٩
بل قال : أرسلنى إليه ، لكى أراه وأستبين ٢٠
فورًا أتى الساقى إلى الصديق فى السجن اللعين ٢١
قد كان يوسف قابعًا فى السجن بين المجرمين ٢٢
ناداه هيا أفتنا بالصدق فُتيا عالمين ٢٣
فى سبع بقرات سمان ، ثم سبع عاسفين ٢٤
العاسفات أكلن للسبع السمان على اليقين ٢٥
أيضًا وسبع سنابلٍ خُضر لعين الناظرين ٢٦

مع يابسات مثلهنّ ، أكلنهنّ ، لمستبين ٢٧
يا صاح هيا أفتنا ، فلقد غدونا حائرين ٢٨
كى أرجعنّ إلى المليك ليعلمنّ ويستبين ٢٩
والناس كل يعلمون ، ولم يظلوا جاهلين ٣٠
فأجابه الصديق من علم النبوة ، إذ يُبين ٣١
رؤيا المليك نذير سوء للبرية أجمعين ٣٢
إن تفهموا أسرارها ، لا لن تكونوا هالكين ٣٣
أوفا لهلاك إذا أبيتم أن تكونوا فاهمين ٣٤
تأويلها ، خصبٌ يعمّ الأرض كونوا حاذرين ٣٥
ويكون ذلك سبع أعوام تباعًا كاملين ٣٦
لكن سأوصيكم ، فكونوا للوصية مدركين ٣٧
عند الحصيد ذروا السنابل دون درس سالمين ٣٨
بعد السنين الخصب يأتى الجدب كالقدر المبين ٣٩
فيكون سبعًا مثل سبع الخصب عند الحاسبين ٤٠
فيعم كل الأرض ، صار الناس كلاً جائعين ٤١
الجدب يأكل كل مخزون القديم من السنين ٤٢
إلا قليلاً سوف يبقى حيث كنتم محصِنين ٤٣
الخصب ثم الجدب من تقدير رب العالمين ٤٤
كل العوالم للإله تضرعوا متجردين ٤٥
ويجىء عام بعد هذا فيه غوث الضارعين ٤٦
الناس قد نعموا فصاروا للفواكه عاصرين ٤٧
عاد الرسول إلى المليك ، ويحمل القول المبين ٤٨
أفضى إليه بقول يوسف ، ذلك الرجل الفطين ٤٩
قال المليك : فأحضروه ، فنعمت الرجل الأمين ٥٠
فلتحضِروه لكى أراه وأسمعنّ وأستبين ٥١
عاد الرسول ليوسف فى السجن عود مُبشرين ٥٢
ناداه ! أبشر يا سليل المجد يا ابن الأكرمين ٥٣
الغوث جاء إليك يسعى ، كنت بين المهملين ٥٤
هيا أجب ملك البلاد ، تنلْ أمان الآمنين ٥٥

لكنّ يوسف لم يُجب ، وأبى إباء الرافضين ٥٦
بل قال للساقى: فلستُ بخارج كالمستكين ٥٧
عُدْ واسأل الملك العظيم ، تساؤل المستفهمين ٥٨
عن نسوة قطعن أيْديَهن دهشًا أجمعين ٥٩
الله يعلم كيدهنّ ، وفوق كيد الكائدين ٦٠
أنعم بيوسف إنه قد كان ذا عقل رزين ٦١
لم يُسرِعَنّ إلى الخروج بلهفة المتعجلين ٦٢
هل يَخرجَنّ ويرتضى بإشاعة المتقولين؟! ٦٣
قد كان يبغى أن يُبَرأ من مقال الشائعين ٦٤
من أجل ذا أثنى عليه محمدٌ كالمعجبين ٦٥
جمع المليك نساء مصر وقال: إنى مستبين ٦٦
ما شأن يوسف؟! أخْبرنّى بالحقيقة واليقين ٦٧
هل كان يوسف صادقًا؟! أم قارف الفعل المشين ٦٨
فأجبنه بالحق، يوسف لم يكن فى الخائنين ٦٩
لا ما علمنا عنه سوءًا ، فهو ذو شرف أمين ٧٠
لكنّ زليخا أعلنت فى سمع كل الحاضرين ٧١
الحق سوف أقوله : كى أنصف المستضعفين ٧٢
فأنا الذى راودت يوسف ، أطلب الفعل المشين ٧٣
ولقد أبى أن يستجيب ، فكان ذا خُلق ودين ٧٤
فليطمئن عزيز مصر ، وليكن فى الموقنين ٧٥
ما خنته فى عرضه ، والله خير الشاهدين ٧٦
لا أدعى أنى برئت من الذنوب الأصغرين ٧٧
لكننى أخشى الخيانة ، أو سلوك الخائنين ٧٨
فالخائنون فلن يكونوا فى عداد المهتدين ٧٩
أما النفوس فإنها من صنع رب العالمين ٨٠
هى للهوى والسوء تدعو بئس دعوى المفسدين ٨١
لكننى لم أقترف لكبيرة كالماجنين ٨٢
الله يغفر كل ذنب إن يشأ للتائبين ٨٣

رؤيا ملك مصر

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ ... ﴾

مَلِكُ البلاد لقد رأى رؤيا تهم العالمين ١
رؤياه كانت مثل فلق الصبح للمتأولين ٢
فأفاق مذعورًا فنادى أهله ومقربين ٣
قال: اسمعوا قولى ، وكونوا للمقالة مدركين ٤
رؤيا رأيتُ ولا أزال لها من المتحيرين ٥

فى إحدى الليالى التى أعقبت خروج ساقى الملك من سجنه، وكان قد رأى رؤيا منامية ، ففسرها له يوسف الصديق ، وبشره بالخروج من ظلمات السجن إلى عالم الحرية . . وصدق يوسف الصديق فى تفسيره .

فى إحدى تلك الليالى ، رأى عزيز مصر رؤيا منامية ، وقد كانت أحداث تلك الرؤيا توحى بمفاهيم هامه . . ولا غرو فهو ملك البلاد ، ورؤياه لها أهمية خاصة ، غير رؤى السوقة ، وعامة الشعب. إذ ربما تكون رؤياه لأجل الشعب الذى يتولى قيادته وحكمه ، وليست لأجله ولأسرته فحسب ، كشان عامة الناس . لقد استيقظ الملك مذعورًا من أحداث تلك الرؤيا التى رآها . . فاستدعى الحكماء والعلماء ، من المتخصصين فى فروع العلم والمعرفة .

الملك فى حيرة ، أعصابه مشدودة متوترة من تأثير الرؤيا على نفسه . . ونفسه مرهقة متعبة ، لا يكاد يهدأ أو يستقر .

لقد اجتمع العلماء والحكماء عند الملك فى قصره ، جلس إليهم ، تحدث معهم حديثًا مستفيضًا عن الأحلام ، وعن اعتقاد الناس فيها ، وتأثيرها وعلاقتها بأحداث الحياة، وعن كونها تشف عن المستقبل فى حياة الأفراد والمجتمعات، ثم قال لهم : لقد رأيت رؤيا هامة فى ليلتى هذه ، وهذه الرؤيا أخالها من الرؤى الخطيرة ؛ لأن أحداثها توحى بأشياء هامة لها خطورتها ، لكن لا أدرى ما هى؟!

إننى فى حيرة من أحداثها . . فكم رأيت من الرؤى قبل ذلك ، بيد أننى لم ألتفت لأى منها ، لأننى لم أشعر بأهمية أى منها آنذاك.

الملك يقص رؤياه على جلسائه

﴿ ... سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾

من سبع بقرات عجاف فى عيون الناظرين ٦
يأكلن سبعًا مثلهنّ من السّمان المشحمين ٧
وسنابلٌ سبع وسبع مثلهنْ متناقضين ٨
اليابسات أكَلْنَ سَبعَ اليانعات على اليقين ٩

بعد أن جمع الملك ، الحكماء والعلماء والفقهاء، من خواص رجال دولته ، وتحدث إليهم عن مقدمات رؤياه التى رآها، وأبدى لهم من أحداثها، بدأ يقص عليهم الرؤيا فقال: رأيت فى نومى شيئًا عجبًا !! رأيت سبع بقرات سمان غلاظ ، وسبع بقرات عجاف مهازيل ، البقرات السبع العجاف ، أقبلن على السبع السمان ، فأكلنهن جميعًا بحيث لم يبقين منهن شيئًا . . حدث هذا فى رؤياى ، ولا أزال أتمثله أمامى الآن.

ورأيت سبع سنبلات خضر ، قد أقبل عليهن سبع سنبلات يابسات ، فأكلنهن أيضًا حتى أتين عليهن ، فلم يبق منهن شىء. والأغرب من هذا أن البقرات العجاف ، لم يَبْد عليهن تضخمًا أو زيادة فى حجمهن ، بعد أكلهن السبع السمان . . وكذلك السنابل السبع اليابسات، فلم يتغير منهن شىء بعد أكلهن السنابل الخضر اليانعات.

« قال القرطبى فى تفسيره: « لما دنا فرج يوسف عليه السلام، رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشره بالفرج وقال: إن الله مخرجك من سجنك ، وممكّن لك فى الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها، كذا وكذا، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف ، بلاء وشدة ، وجعلها آخراً ، بشرى ورحمة ، وذلك أن الملك الأكبر الريان بن الوليد، رأى فى نومه ، كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سمان، فى أثرهن سبع عجاف، وقد أقبلت العجاف على السمان فأخذن بآذانهن ، فأكلنهن إلا القرنين ، ورأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن ، حتى أتين عليهن ، فلم يبق منهن شىء . . إلخ .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

﴿ ... سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ .

« المسألة الثانية : أنه تعالى جعل تلك الرؤيا سببًا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن ، وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببها ؛ لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوى، فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد ، وأنه منذر بنوع من أنواع الشر ، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه ، والشيء إذا صار معلومًا من وجه وبقى مجهولاً من وجه آخر ، عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة ، وقويت الرغبة في إتمام الناقص ، لاسيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن ، واسع المملكة ، وكان ذلك الشيء دالاً على الشر من بعض الوجوه ، فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك فى تحصيل العلم ، بتعبير هذه الرؤيا .

الملك يطلب تأويل رؤياه من العلماء

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذا المليك يحدثُ العلماء والمتفقهين ١٠
من ثَم قال لهم : فأفتونى ، وكونوا صادقين ١١

برغم كثرة ما يراه الملك من رؤى فى نومه كل ليلة ، فهو لا يكاد يذكر منه شيئًا ، فمنذ أن يستقيظ ، تتبخر أحداث ما يراه فى نومه . . إلا هذه الرؤيا ، فإنها أثارت انتباهه ، وجعلته يستدعى العلماء والفقهاء والحكماء، وربما السحرة ، أملاً فى أن يجد لدى أحد منهم ، أو لديهم كلهم تفسيرًا لرؤياه تلك ، يطمئن إليه.

لقد قص الرؤيا عليهم جميعًا ثم قال : هيا أفتونى فى رؤياى هذه ، ولا غرو فأنتم صفوة الشعب، فاعبروا هذه الرؤيا إن كان لديكم علم بتأويل الأحلام. بيد أنهم وجموا جميعًا ،فلم يجيبوا بما كان يتوقع أن يجده لديهم جميعًا ، بل خيبوا ظنه حينما تكلموا .

لقد أعجز الله ذلك الجمع الكبير من صفوة القوم ، والذين استدعاهم الملك ليعبروا له رؤياه ، أعجزهم عن فهم تعبير هذه الرؤيا الغريبة ، ليس لدى أحدهم جوابًا شافيًا . . لقد عمّى الله عليهم فهمها ؛ ليصير ذلك سببًا لخلاص يوسف من محنته.

قال الصابونى فى « صفوة التفاسير » : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أى يا أيها الأشراف من رجالى وأصحابى ، أخبرونى عن تفسير هذه الرؤيا ، إن كنتم تجيدون تعبير الأحلام ، وتعرفون مغزاها .

قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله تعالى، أنها كانت سببًا لخروج يوسف من السجن، معززًا مكرمًا ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون فى تفسيرها ، فجمع الكهنة والحزاة ـ جمع حاز ، هو المتكهن ـ وكبراء دولته وأمراءه ، وقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره :﴿ كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا ، وهى الانتقال من الصور الخيالية ، إلى المعانى النفسانية ، التى هى مثالها من العبور ، وهى المجاوزة .

لم يجد الملك تفسيرا لرؤياه

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قالوا له : أضغاث أحلام تجيء النائمين ١٢
بل إننا لسنا بتأويل الحديث بعالمين ١٣

كما أسلفنا، فإن الملك قص رؤياه على الحاضرين، من صفوة القوم: علماء وحكماء وفقهاء ومفكرين . ولبث منتظرًا إجابة منهم جميعًا ، أو حتى من أحدهم . . كان ينتظر الإجابة بفارغ الصبر ، لقد كان قلقًا غير مستقر فى تفكيره ، وأعصابه مشدودة .

فماذا كانت إجابتهم ؟! إجابة سجلها القرآن الكريم وحيًا يتلى على سمع الدنيا : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ . أى هذه الرؤيا التى رأيتها ، وقصصت علينا أحداثها ، لعلها أضغاث أحلام مما يراها النائمون وما أكثرها !! وهى عادة تكون عالقة فى ذهن النائم ، من أثر أحداث مرت به فى يومه ، فيراها فى نومه. وعلى كل حال، فتأويل الأحلام ، علم خطير ليس ميسرًا لكل ذى علم ، فهو علم له قواعده وأصوله ، ومن ثم فلا ينبغى لنا أن نقول فيه بغير دراية أو دراسة .

قال الفخر الرازى فى تفسيره: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾. واعلم أن القوم ما نفوا عن أنفسهم ، كونهم عالمين بعلم التعبير ، بل قالوا: إن علم التعبير على قسمين : منه ما تكون الرؤيا فيه متسقة منتظمة ، فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة ، إلى الحقائق العقلية الروحانية ، ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ، ولا يكون فيها ترتيب معلوم ، وهو المسمى بالأضغاث . والقوم قالوا إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث ، ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم ، وكأنهم قالوا : هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة ، وما كان كذلك فنحن لا نهتدى إليها، ولا يحيط عقلنا بها ، وفيه إيهام أن العالم فى هذا العلم ، والمتبحر فيه ، قد يهتدى إليها.

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ . أى هذه أضغاث أحلام، وهى تخاليط جمع ضغث، وأصله مما جمع من أخلاط النبات وحزم . . يريدون بالأحلام ، المنامات الباطلة خاصة ، أى ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة ، فهو كأنه مقدمة ثانية للعذر فى جهلهم بتأويله .

الذى خرج من السجن يتذكر يوسف

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾

قد كان صاحب يوسف فى القوم بين الحاضرين ١٤
سمع الحديث ، تذكر الأحلام فى السجن المهين ١٥
وتذكر الصِّدّيقَ فى تأويله للحالمين ١٦
تأويله ، قد كان صدقًا ، يشبه الوحى المبين ١٧

فى الوقت الذى تحدث فيه ملك مصر ، للعلماء ، والحكماء والفقهاء والسحرة، عن رؤياه التى أهمته بغرابة أحداثها ، فضلاً عن تصوره أنها رؤيا هامة ، وأهميتها تتعلق بدولته وشعبه، وربما لكل الأمم المعاصرة آنذاك . فى ذلك الوقت ، كان ساقى الملك ، الذى خرج من السجن ، شاهدًا وسامعًا لكل ما دار بين الملك وجميع الحاضرين .

فى ذلك الوقت ، تذكر الساقى ، يوسف الصديق ، الذى فسر له رؤياه ، وبشره بالخروج من السجن ، وقد كان تفسيره صدقًا كأنه وحى منزل من عند الله ، وقد كان تذكُّره هذا بعد سنين قضاها يوسف فى السجن ، برغم أنه أوصاه عند خروجه فقال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أى عند سيدك الملك ، غير أن إرادة الله قد سبقت ، أن يظل يوسف فى السجن ، إلى أن يرى الملك رؤياه تلك ، فيعبرها يوسف . . إنها الأسباب والمسببات التى تنظم حركة الكون!!

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى من صاحبى السجن ، وهو الساقى أحد أركان القصة ، وادّكر بعد أمة ، أى والحال أنه تذكر بعد طائفة طويلة من الزمن ، وصية يوسف إياه ، بأن يذكره عند سيده الملك، فأنساه الشيطان ذلك .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » وتكثر الأحاديث حول حلم الملك،وتدور فى محيطه التخريجات والتخرصات ، وترجف المدينة بالتكهنات والأراجيف ، ويشارك ساقى الملك ، صاحب يوسف فى سجنه ، هذا الذى يخب فيه الناس ويضعون،وهنا يصحو هذا الغافى من غفوته ، ويفيق من سكرته ، فيذكر يوسف

وماله من قدرة خارقة على تأويل الأحاديث والأحلام. .».

قال الفخر الرازى فى تفسيره: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد أمة أى بعد حين ، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة ، كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم ، فالحين كان أمة من الأيام والساعات . . إلى أن قال : وحاصل الكلام أنه إما أن يكون المراد وادّكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك ،أو المراد وادكر بعد النسيان .

الساقى يذهب ليوسف فى السجن

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

فـورًا توجـه لـلـمـلـيـك فكـان سـاقـيه الأمـين ١٨
أوحى له عـن يوسف الصـديق ذى العلـم المتين ١٩
بل قـال : أرسلـنى إليـه ، لكـى أراه وأستـبين ٢٠
فورًا أتى الساقـى إلى الصديق فى السجـن اللعين ٢١
قد كـان يوسف قـابعًا فى السـجن بين المجـرمين ٢٢

لقد تذكر الساقى بعد نسيانه، وأفاق من غـفلته، ولا غرو فهو يعيش حياة القصور ، بين اللهـو والشرب ، وسهر الليـالى فى مجلس المـلك . تذكر يوسف الصـديق الشاب المهـذب الذى اجتمـعت كل قـلوب السجـناء علـى حبه لحلاوة مـنطقـه وحسن خلـقه وتعاطفهم معه لأنه مظلوم .

يوسف الصديق هذا ، هـو الذى فسر رؤيا الساقى والخباز ، فأصاب بـتفسيره عين الصواب . . ولـم لا ، فيوسف الـصديق ، أوتى علـم تأويل الأحلام مـن لدن مولاه العظيم ، أعطاه شفـافية وفراسة وعلما ، بحيث يستطيع أن يـستشف من أحداث الرؤيا وخيالاتها ، ما ترمز إليه بما يكون واقعًا وحقيقة . فمن ثم توجه الساقى إلى الملك فقال له : أنا أعرف رجلاً يستطيع أن يفسر هـذه الرؤيا ، تفسيرًا صادقًا ، وهو رجل معروف مجرب، قد جربتـه فى ذلك فكان صادقًا فى تفسيره . . قـال الملك: من هو ؟! وأين ؟! قال الساقى: هو يوسف ، أيها الملك ، ذلك الـشاب العبرانى ، رهين السجن الذى كان قد نشأ فى بيت العزيز ، وكان له شأن مع امرأة العزيز ، مرنى أيها الملك لأذهب إليه ، فأقص علـيه رؤياك ، فلعلى أجـد عنده علم من تأويـلها ، وأنا واثق أننى سـأجد عنده التـفسير الحـقيقى لـرؤياك أيها المـلك العظـيم . . قال له المـلك : اذهب إليـه. ذهب الساقى، فجاء يوسف فى سجنه، ولا غرو فيوسف يعيش حياته بين نزلاء السجن، من كل فئات الناس، المخـتلفى الأهواء والطباع . ومن مـنطلق الوفاء والعرفان بـالجميل ، كان ينبغى على الساقى أن يجىء يوسف زائرًا له فى سجنه، إلا أنه نسى . . أنساه الشيطان ، وقد كان ذلك بتقدير من الله عز وجل، بيد أنه جاء إليه ، محتاجًا لعلمه وفهمه وفطنته.

قال الصابونى فى تفسـيره « صفوة التفاسير » ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أى أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات، فأرسلونى إليه لآتيكم بتأويلها، خاطب الملك بلفظ التعظيم، قال ابن عباس: لم يكن السجن فى المدينة، ولهذا قال: فأرسلون.

الساقى يقص على يوسف رؤيا الملك

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ .

نـاداه هـيـا أفـتـنـا بـالـصـدق فُتـيـا عـالمين ٢٣
فـى سبـع بقـرات سمـان ، ثم سبع عـاسفـين ٢٤
العـاسفـات أكلن لـلسبـع السـمان علـى اليـقين ٢٥
أيـضًا وسبـع سـنابـل خُضـر لـعين الـنـاظريـن ٢٦
مـع يابـسات مـثـلهـنّ ، أكـلـنـهنّ ، لمـسـتبـين ٢٧

بينما كان يوسف الصديق ، قابعًا فـى سجنه ، جاءه الساقى فناداه قائلا : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الـصِّدِّيـقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ . هيا يا صديقى ، أفـتنا فى هذه الرؤيا ، إنها رؤيا ملك الـبلاد ، وقد أهمته وأقلقـته ، وعلماء مـصر وحكماؤهـا وفقهاؤها ، عـجزوا جميعـا عن تأويلهـا ، ولقد تذكرتك بـعد نسيان طويل ، وتذكـرت قدرتك على الرؤى ، تأويلاً صـادقًا ، بحيث لا تخطـئ من الحقيقـة شيئًا ، ومن ثم جئـتك أملاً في أن أجد لـديك تفسيـرًا لها ، ولا إخالك تجهل معناها، أنت شاب مبارك، وليـس غريبًا أن يكون الله قد أفاض عليك من فضله ، فأعطاك مالم يعطه غيره.

قال الأستـاذ عبد الكريم الخطـيب فى « القصص الـقرآنى » : وفى لحظة خـاطفة كلمح البصر نـراه ـ الساقى ـ وجها لوجه مع يوسف فى السجـن الذى خرج منه ، منذ بضع سنين،وفى لهفة ينسى معها الرجل كل شىء ، إلا أن يعرض الحلم على يوسف ، ويطلب تأويله . ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي ﴾ ولم يعتب يوسـف على الرجل، أنه نسى ما عهد به إليه حين قال له: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ولم يحجب عنه خبر هذا العلم الذى علمه الله ، ولا يخزيه بما فعل ، فيرده . . بل يضع بين يديه الحقيقة سافرة .

قال الشـيخ على الصابـونى فى « أعلام المفـسرين » ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ فى الكلام محذوف، دل عليه الساقى، وتقديره: فأرسلوه، فانطلق الساقى إلى السجن ، ودخل على يوسف وقـال له: يا يوسـف ! يا أيها الـصديق ، وسمـاه صديقًا ، لأنه كـان قد جرب صدقه فـى الرؤيا التى رآها فـى السجن : والصـديق مبالغة مـن الصدق ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ . . .﴾إلخ أى أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة».

الساقى يحث يوسف بالإسراع فى التأويل

﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يـا صاح هـيا أفـتـنا ، فـلقـد غـدونا حـائريـن ٢٨
كـى أرجعـنّ إلى المـلـيك لـيـعلـمنّ ويـسـتبـين ٢٩
والنـاس كل يـعلـمون ، ولـم يظـلوا جـاهلـين ٣٠

لا يزال الساقى مع يوسف الصديق ، يتحدث معه ، فيستعجله فيقول : هيا يا صديقى . . أيها الصديق . . ! أفتنا وأسرع بفتياك التى سوف تبدد الظلام الذى يخيم على عقول وأفكار، العلماء والحكماء والفقهاء ، الذين استدعاهم الملك فى هذا اليوم ، ليفسروا له رؤياه العجيبة،فلم يجد عندهم ما كان يظنه من العلم والحكمة والفراسة . . بل وجد لديهم جهلاً ، فقد قالوا له : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ ثم أردفوا قائلين : حتى وإن لم يكن حلمك هذا من أضغاث الأحلام ، فما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

إن الملك والناس جميعًا ينتظرون عودتى إليهم ، ومعى التأويل الحقيقى الصادق لتلك الرؤيا التى أهمت ملك البلاد ، وبالتالى فقد انسحبت أهمية تلك الرؤيا على عامة الناس ، والناس تبع لملوكهم.

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ أولى الأمر، وأهل الحل والعقد ، بما تلقيه إلى من التأويل والرأى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ مكانتك من العلم ، فينتفعون به ، أو يعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك ، وما يجب أن يعلموا بعد العلم به . . فلعل الأولى ، تعليل لرجوعه إليهم بإفتائه ، ولعل الثانية ، تعليل لما يرجوه من علمهم بها ، والرجاء توقع خير بوقوع أسبابه .

قال الشيخ محمد على الصابونى فى «مع أعلام المفسرين » : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أى لأرجع إلى الملك وأصحابه ،وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ، ويخلصوك من محنتك .

قال الإمام الفخر الرازى : وإنما قال : ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبرين،عن جواب هذه المسألة، فخاف أن يعجز هو أيضًا عنها، فلهذا السبب قال : لعلى.

يوسف يحذر من رؤيا الملك

.....

فأجابه الصديق من علم النبوة ، إذ يُبين ٣١
رؤيا المليك نذير سوء للبرية أجمعين ٣٢
إن تفهموا أسرارها ، لا لن تكونوا هالكين ٣٣
أوفالهلاك إذا أبيتم أن تكونوا فاهمين ٣٤

بعد أن انتهى ساقى الملك من قص رؤيا الملك ، على يوسف الصديق ، وتحدث معه عن أشياء تدور حول الرؤيا وتعبيرها ، واهتمام الملك بها ، واهتمام الناس أيضًا برؤيا الملك ، تبعًا لاهتمامه. فقال يوسف الصديق للساقى : وهو واثق من صحة ما يقول ـ يا صديقى. . رؤيا سيدك هذه توحى بشىء خطير ، إنها بمثابة ناقوس خطر يدق فى سمع الدنيا . . هى بغير شك نذير سوء، لا لهذا البلد فحسب، بل للعالم أجمع، إنها تشير إلى خطر يهدد الإنسانية بالهلاك ، فإذا فهمتم وأدركتم حقيقتها ، وعملتم ما ينبغى أن يعمل فى مثل هذه الأحوال ، فقد تنجو الإنسانية من الهلاك المحقق ، المحدق بها.

وإذا لم تفهموا سرها ومعناها، وتشاغلتم عنها بأحداث الحياة الجارية ، فالهلاك بغير شك يحبو نحو هذا البلد أولاً ، ثم كل من حوله من الأصقاع، هو كما أتصوره هلاك ، لا ينجو منه أحد. لا غرو أن يوسف الصديق، يتحدث للساقى، وكأنه يتحدث للملك نفسه، أو الدولة كلها، ومن ثم فهو يحذر الجميع من خطر هذه الرؤيا، ويبين لهم ما يجب عليهم عمله ، لتلافى ما تدل عليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد ، قبل وقوعها.

وهذا بلا شك من يوسف الصديق ، يعتبر ضربا من ضروب البلاغة والإيجاز معًا ، لا نجدهما فى غير القرآن الكريم. إن يوسف الصديق ، برغم ما عاناه من الظلم فى سجنة، وهو البرىء كل البراءة، لم يبخل بتفسير رؤيا الملك، وبادر بتفسيرها وأخبر الساقى عما توحى إليه رؤيا الملك لم يطلب من الساقى مقايضة: أى يتم الإفراج عنه ليعبر رؤيا الملك ، وكان هذا يعتبر طلبًا متواضعًا منه لو هو أراده . . لكنه لم يفعل !!

من ثم فإن الكون كله ليعجب من عزة نفس يوسف عليه السلام ، ويحنى هامته إجلالاً وإكبارًا له !!

يوسف يفسر رؤيا الملك: جزأها الأول

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾

تأويلها ، خصبٌ يعمّ الأرض كونوا حاذرين ٣٥
ويكون ذلك سبع أعوام تباعًا كاملين ٣٦
لكن سأوصيكم ، فكونوا للوصية مدركين ٣٧
عند الحصيد ذروا السنابل دون درس سالمين ٣٨

بعد أن قدم يوسف بين يدى تفسيره للرؤيا كلاما ، هم فى حاجة إليه ، ليدركوا مدى الخطر الذى يحدق بالناس ، شرع فى تفسير الرؤيا قال: سوف تزرعون الأرض سبعة أعوام متوالية ، تلك الأعوام السبعة سوف تكون خصباً ، يعم البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، بيد أن هذا الخير الذى سوف يكون نتيجة ذلك الخصب ، فى حاجة إلى عقول حكيمة ، تتصرف فى توزيعه بحكمة على عامة الناس ، دون إسراف ، انتظاراً لما سوف يعقب هذه السنين . إذن فأنا أوصيكم وصية ، وعلكيم أن تأخذوا بها ، إن شئتم نجاحاً فى تلك المهمة .

فى الأعوام السبعة التى ستكون أعوام خير وخصب ، اتركوا القمح فى سنابله بعد أن تحصدوه لا تدرسوا كما تصنعون كل عام ، ذروا القمح كما هو بسنابله دون درس ، لا تدرسوا منه إلا على قدر احتياجكم للطعام فقط . . فذلك أبقى له وأصون .

قال القرطبى فى تفسيره هذه الآية : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ لما أعلمه الساقى بالرؤيا ، جعل يفسرها له فقال : السبع من البقرات السمان ، والسنبلات الخضر سبع مخصبات ، وأما البقرات العجاف ، والسنبلات اليابسات ، فسبع سنين مجدبات ، فذلك قوله : ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ ، أى متوالية متتابعة ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ قيل : لئلا يتسوس وليكون أبقى ، وهكذا الأمر فى ديار مصر ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أى استخرجوا ما تحتاجون إليه ، بقدر الحاجه ، وهذا القول منه ـ من يوسف ـ أمر . . الخ .

قال ابن كثير : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أى يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين ، لأنها الأرض التى تستغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر ، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين فقال : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى مهما استغللتم فى هذه السنين السبع الخصب ، فاخزنوه فى سنبله ، ليكون أبقى له ، وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذى تأكلونه ، وليكن قليلاً ، لا تسرفوا فيه .

ويفسر الجزء الثانى

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨)﴾

بعد السنين الخصب يأتى الجدب كالقدر المبين ٣٩
فيكون سبعًا مثل سبع الخصب عند الحاسبين ٤٠
فيعم كل الأرض ، صار الناس كلاً جائعين ٤١
الجدب يأكل كل مخزون القديم من السنين ٤٢
إلا قليلاً سوف يبقى حيث كنتم محصنين ٤٣

بعد سنى الخصب السبع التى سوف تأتيكم متتابعة ،سوف تأتيكم سبع سنوات أخرى جافات ،سبع سنوات من الجدب ،لازرع ولا خضرة بحيث أنهن سوف يستنفدن كل ماخزنتم ،من غلال وخير خلال سنى الخصب السبع الأولى. ومن ثم سوف تعم المجاعة كل أنحاء الأرض،ولن يقيكم شر تلك المجاعة إلا ماخزنتموه وأبقيتموه فى سنابله ،توقياً للجدب الذى كان منتظراً.

قال الأستاذ محمد رشيد رضا فى تفسيره «المنار»: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أى سبع سنين شداد، فى محلهن وجدبهن، ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى يأكل أهلهن كل ما قدمتم لهم، وهو من إسنادهم إلى الزمان والدهر ما يقع فيه، يكثر إسناد العسر والجوع إلى سنى الجدب يقال: أكلت لنا هذه السنة كل شيء، ولم تبق لنا خفاً ولا حافراً، ولا سبداً ولا لبداً. أى لا شعراً ولا صوفاً. وهذا تأويل للبقرات السبع العجاف ، وأكلهن للسبع السمان، وللسنبلات اليابسات ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أى تحرزون وتدخرون للبذر .

قال البيضاوى فى تفسيره: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى يأكل أهلهن ،ما ادخرتم لأجلهن ،فأسند إليهن على المجاز تطبيقا بين المعبر والمعبر به﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون لبذور الزراعة .

قال القرطبى فى تفسيره: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعنى السنين المجدبات ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ مجاز ، والمعنى يأكل أهلهن ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى ما ادخرتم لأجلهن ،ونحوه قول القائل:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم

والنهار لا يسهو والليل لاينام ،وإنما يسهى فى النهار ،وينام فى الليل ،وقيل: إن يوسف كان يصنع طعام الاثنين فيقربه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ،حتى إذا كان يوم قربه له فأكله كله. فقال يوسف: هذا أول يوم من السبع الشداد ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أى مما تحبسون لتزرعوا ،لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات .

ويضيف إلى الرؤيا شيئاً من علمه

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾

الخصب ثم الجدب من تقدير رب العالمين ٤٤
كل العوالم للإله تضرعوا متجردين ٤٥
ويجيء عام بعد هذا فيه غوث الضارعين ٤٦
الناس قد نعموا فصاروا للفواكه عاصرين ٤٧

بعد أن تحدث يوسف إلى ساقى الملك ، ففسر له رؤيا سيده ملك مصر ، فذكر له سنى الخصب السبع ، ومن بعدهن السبع الجدب اللواتى سوف يأكل الناس فيهن كل شيء ، مما خزن خلال سنى الخصب . قال : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أى أن الله عز وجل ، سوف يتدارك مخلوقاته برحمته ، لن يتركهم يهلكون جوعاً ، ولا غرو فالناس فى المحن والأزمات ، يلجأون إلى السماء ضارعين ، وضراعتهم فى هذه الأحوال تكون صادقة . فمن ثم يستجيب المولى عز وجل ، لضراعة عباده حينما يعلم الصدق منهم ، وأنهم ما لجأوا إليه بعد أن عجزوا عن دفع الضر عن أنفسهم ، بما لديهم من الوسائل المادية المتاحة . وفعلا لقد استجاب المولى سبحانه وتعالى ، فأرسل الخير إلى الناس ، وعم الأرض الخصب بعد الجدب والجفاف ، فشبع الناس بعد الجوع ، والدواب قد استحيت بعد الهلاك ، فكثرت الألبان والسمن . . وكثرت الثمار بحيث صار الناس يعصرون الزيوت والفواكه لكثرتها .

قال الشيخ محمد على الصابونى فى « مع أعلام المفسرين » : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أى يأتى بعد سنى القحط والجدب العصيبة ، عام رخاء ، فيه يمطر الناس ويغاثون ، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه . . قال الزمخشرى : تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحى . بعد أن فسر يوسف عليه السلام ، رؤيا الملك أضاف : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ هذا زائد على تأول الرؤيا ، لم يعرفه يوسف إلا بوحى من الله عز وجل إذ لا مقابل له فى رؤيا الملك ، ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل .

الملك يأمر بإحضار يوسف

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾

عاد الرسول إلى المليك ، ويحمل القول المبين ٤٨
أفضى إليه بقول يوسف ، ذلك الرجل الفطين ٤٩
قال المليك : فأحضروه ، فنعمت الرجل الأمين ٥٠
فلتحضروه لكى أراه وأسمعنّ وأستبين ٥١

ما إن انتهى يوسف الصديق من تأويل رؤيا ملك مصر، وإسداء النصح للملك وأولى الأمر بما ينبغى أن يتخذوه ، فى مواجهة الخطر الذى سوف يدهم البلاد بالدمار والهلاك ، كل هذا كان من خلال الساقى. عاد الساقى إلى الملك مسروراً ، حيث لم يخب ظنه فى يوسف الصديق، لقد فسر له يوسف، رؤيا الملك، تفسيرا يشبه الإعجاز ، بل هو الإعجاز نفسه، وقد كان يخشى ألا يجد عند يوسف التفسير الحقيقى لرؤيا سيده.

المهم ، لقد قص الساقى على سمع الملك ، ما قاله له يوسف الصديق من تأويل لرؤياه. لقد استنبط يوسف من أحداثها، الوقائع الخطيرة المستقبلة، هذا لعمر الله أمر خطير. لقد أعجب الملك بفطنة يوسف ، وبراعته فى استنباطه إعجاباً وصل إلى حد الانبهار. فمن ثم أمر فوراً بإحضار يوسف من السجن، لم يكتف بكلام الساقى الذى نقله عن يوسف ، بل أراد أن يسمع منه مشافهة دون واسطة. فقال: هاتوا لى يوسف، أخرجوه من السجن. أريد أن أراه وأسمع منه.

قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ يقول تعالى إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التى رآها ، بما أعجبه وأيقنه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه ، وحسن اطلاعه على رؤياه ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه فقال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ أى أخرجوه من السجن وأحضروه . . إلخ .

قال الأستاذ رشيد رضا فى « المنار » : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ لأسمع كلامه بأذنى ، وأختبر تفصيل رأيه ودرجة عقله بنفسى .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى «القصص القرآنى»: وينطلق الرجل ـ الساقى ـ انطلاق السهم ، فيلقى بين يدى الملك بهذا التأويل الذى يقع من الملك موقع الحق المستيقن ، وعندئذ يهتف الملك بالملأ حوله ، طالبًا إحضار هذا الذى عنده هذا العلم الذى تفرد به .

الرسول يذهب لإحضار يوسف من السجن

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ... ﴾

عادَ الرسولُ ليوسفٍ فى السجنِ عَوْدَ مُبَشِّرين ٥٢
ناداه! أبشر يا سليلَ المجدِ يا ابنَ الأكرَمين ٥٣
الغَوْثُ جاءَ إليك يسعَى كنتَ بينَ المهمَلين ٥٤
هيَّا أجبْ ملكَ البلادِ تَنَلْ أمانَ الآمنين ٥٥

ما إن سمع الساقى الأمر من الملك ، بإخراج يوسف الصديق عليه السلام من السجن، فرح فرحًا شديدًا لا مزيد عليه ، ولم لا ، فهو سوف يكون بشير خير، ويدخل السرور على قلب إنسان يحبه ويجله ، ويتمنى أن يمد له يد العون ، وما لم يستطع ذلك فعلى الأقل أن يكون بشيرًا له بما يفرحه ويسعده . توجه فورًا صوب السجن الذى يضم بين جدرانه : المظلومين والمجرمين معًا . . ويوسف الصديق قضى عليه بأن يعيش بين أولئك الأخلاط من البشر ، ولا غرو فهذه حكمة الله أرادها ليوسف ، ليتم له المعرفة التامة بفئات الناس . ولم لا . . فهو نبى ورسول ، ومن لوازم النبوة ، الإلمام والمعرفة بأخلاقيات وطباع الناس ، شريفهم ووضيعهم ، ليستطيع التعامل مع الجميع عن علم ودراية ، وفى الحديث الشريف : « المؤمن كيس فطن » . لقد كان الساقى يعلم أن يوسف الصديق عليه السلام مظلوم ، ومكانه الحقيقى ينبغى أن يكون في أرفع المناصب فى الدولة ، وذلك لما يتمتع به من رجاحة العقل ، وفضل العلم ، وليس فى السجن . . إن الدولة فى حاجة إلى فكر وعلم وفطنة يوسف عليه السلام .

ويستأذن الساقى حراس السجن ، لكى يرى يوسف الصديق بعد بضع سنين ، فأذنوا له ، ما إن رأى الساقى صديقه يوسف ، هتف قائلا : أبشر يا صديقى ! أبشر يا سليل المجد والشرف ، يا ابن الأكرمين ، لقد جئتك بأحسن خبر ، لقد جاءك الفرج ، لسوف تبارح أسوار السجن البغيض ، إلى دنيا الحرية . لقد أمر الملك بإخراجك من السجن يا يوسف ، لقد انتهت الأيام السود فى هذا السجن الرهيب ، سوف تودع عالم الظلام إلى عالم النور . هيا أيها الصديق ، ملك البلاد يدعوك لتكون فى مجلسه، يريد أن يتحدث معك ، ويستمع إليك،ومن ثم فسوف تنال رضاءه واحترامه،وبالتالى سوف تكون مقربًا عنده . إنك جدير بكل خير أيها الصديق ، أهنئك يا صديقى بطلوع شمس حريتك بعد الليل الطويل ، ولسوف تظهر براءتك مما نسب إليك ، وأدخلت السجن بسببه، ومن ثم فسوف تعيش آمنًا أمينًا .

يوسف يرفض أن يخرج من السجن إلا بظهور براءته

﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

لكنّ يوسفَ لم يُجبْ ، وأبَى إباءَ الرافضين ٥٦
بل قالَ للساقى : فلستُ بخارجٍ كالمستكين ٥٧
عُدْ واسألِ الملك العظيمَ تساؤلَ المستفهمين ٥٨
عن نسوةٍ قطّعنَ أيديهن دهْشًا أجمعين ٥٩
اللهُ يعلمُ كيدَهنَّ وفوقَ كيدِ الكائدين ٦٠

يالله !! لقد فوجىء الساقى بما لم يكن يدور بخلده ، ولم يَحُم بتفكيره نحوه قط . . هو رفض يوسف الخروج من السجن ، وفى هذا المقال تتجلى عظمة الرجال فى أروع صورها ، فيوسف حينما جاءته البشرى بالخروج من السجن ، لم يَبْدُ عليه أنه سُر بهذا الخبر ، ومن ثم فلم يبادر بالخروج .

ذلك لأنه لا يريد أن يخرج من السجن ، بينما التهمة التى أدخل السجن بسببها ظلت لاصقة به ، فهو كريم من سلالة آباء كرام ، ومن ثم رفض الخروج ، فقال للساقى بكل هدوء ، عد إلى سيدك ، واسأله عن أمر هام ، يتعلق به شرفى وكرامتى وسمعتى . . اسأله عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

فليبحث سيدك هذا الأمر بدقة وحرص ، فهو خاص بى ، ولن أخرج من السجن قبل أن تظهر براءتى ، مما اتهمت به ظلمًا وعدوانًا .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه «أنبياء الله » : رفض يوسف أن يخرج من السجن إلا إذا ثبتت براءته ، يبدو أنهم كانوا قد اتهموه بشىء يدور حول النساء اللاتى قطعن أيديهن . لعلهن قالوا مثلاً : إنه حاول الاعتداء عليهن ، فدافعن عن أنفسهن ، ومزقن أيديهن بالسكاكين ، لعلهم افتروا عليه أى افتراء متهافت ، يستحيل هضمه ، كل شىء جائز فى القصور . . إلخ .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة

﴿ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصح براءته عند الملك مما قذف به، وأنه حبس بلا جرم .

قال الصابونى فى « صفوة التفاسير » : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أى قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أى سله عن قصة النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، هل يعلم أمرهنّ ؟ ! وهل يدرى لماذا حبست ودخلت السجن؟! وأنى طلمت بسببهن؟! أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تبرأ ساحته ، من تلك التهمة الشنيعة ، وأن يعلم الناس جميعًا أنه حبس بلا جرم ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيم ﴾ أى إنه تعالى هو العليم بخفيات الأمور وبما دبّرن من كيدٍ لى.

محمد ﷺ يثنى على يوسف

.....

أنعم بيوسف إنه قد كان ذا عقل رزين ٦١
لم يُسرِعَنّ إلى الخروج بلهفة المتعجلين ٦٢
هل يَخرجَنّ ويرتضى بإشاعة المتقولين؟! ٦٣
قد كان يبغى أن يُبَرأ من مقال الشائعين ٦٤
من أجل ذا أثنى عليه محمدٌ كالمعجبين ٦٥

يالله!! لقد رفض يوسف الصديق أن يخرج من السجن ، إلا إذا ثبتت براءته مما نسب إليه ظلمًا وعدوانًا ، وأدخل السجن بسببه ، لقد كان يوسف فى موقفه هذا ، موفقًا كل التوفيق ، ناضج الفكر ، حكيمًا فى تصرفاته ، إن مفاجأة الخبر لم تُنْسِه كرامته وسمعته ، إنه لأمر يثير إعجاب كل ذى عقل . بل كأنى بكل عقلاء الدنيا ، يحنون رءوسهم إجلالاً ليوسف ، إزاء تصرفه هذا !! نعم ، يوسف لا يريد أن يخرج من السجن ، ليجد الشائعات تنتظره ، بل تلاحقه أينما حل وأينما سار ، أصابع الاتهام تشير إليه . . هذا الذى من شأنه كيت وكيت ؟! ولا غرو فيوسف الصديق بتصرفه هذا نال إعجاب محمد ﷺ وثناءه.

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى؟! قال : أو لم تؤمن؟! قال: بلى ، ولكن ليطمئن قلبى، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف ، لأجبت الداعى » البخارى ومسلم .

وعن عكرمة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ، ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ، حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه ، لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر » من تفسير الطبرى.

وفى رواية للإمام أحمد أنه ﷺ قال : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر ». وفى رواية أخرى عند الطبرى أيضًا ، يرحم الله يوسف ، لو كنت أنا المحبوس ، ثم أرسل إلىّ ، لخرجت سريعًا ، إن كان لحليمًا ذا أناة ».

قال الأستاذ رشيد رضا : وفى هذا الترىث والسؤال فوائد جليلة فى أخلاق يوسف عليه السلام ، وعقله وأدبه فى سؤاله ، منها دلالته على صبره وأناته ، وجدير بمن لقى ما لقى من الشدائد أن يكون صبورًا حليمًا ، فكيف إذا كان نبيًا وارثًا لإبراهيم الذى وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

الملك يسأل النساء عن يوسف فينفين عنه السوء

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾

جمع المليك نساء مصر وقال: إنى مستبين ٦٦
ما شأن يوسف؟! أخْبرنّى بالحقيقة واليقين ٦٧
هل كان يوسف صادقًا؟! أم قارف الفعل المشين ٦٨
فأجبنه بالحق، يوسف لم يكن فى الخائنين ٦٩
لا ما علمنا عنه سوءًا ، فهو ذو شرف أمين ٧٠

لقد عاد الساقى إلى سيده الملك . . عاد إلى سيده وليس معه يوسف، وقد كان الملك ينتظر عودة الساقى بفارغ الصبر ، ذلك لأنه سوف يعود ومعه الرجل الذى أعجب الملك به قبل أن يراه ، لعلمه وفطنته وفراسته. لما رأى الملك الساقى مقبلاً نحوه ، وليس معه أحد ، صرخ الملك فى الساقى قائلاً ويحك ! أين صاحبك يوسف؟! قال الساقى : أيها الملك ! لقد أبى يوسف أن يخرج من السجن ، ثم أخبره سبب رفضه الخروج من السجن. تعجب الملك من تصرف يوسف الصديق ، لكونه رفض الخروج من السجن . . ثم قال لنفسه : لابد أن هذا الرجل ، قد ظلم ظلمًا فظيعًا ، لابد أنه يخشى من شىء ينتظره خارج السجن ، أكبر من خشيته من السجن نفسه . ويبدو أنه أيضًا من سلالة آباء كرام، لأجل ذلك أثر البقاء فى غياهب السجن، على أن يسير بين الناس مخدوش الكرامة ، مطعونًا فى سلوكه وشرفه . فورًا أمر الملك باستدعاء امرأة العزيز ، صاحبة القصة الشهيرة التى ملأت الأسماع، ولاكتها الألسن آنذاك ، واستدعى أيضًا كل نساء الوزراء اللواتى أبقاهن الموت، ممن كن حاضرات مأدبة امرأة العزيز ، وحدث فيها ما حدث، إذ قطعن أيديهن عند رؤيتهن يوسف. النسوة كلهن حاضرات فى مجلس الملك ، فسألهن قائلا : أخبرننى بالحقيقة ! ما هو موقف يوسف ، يوم أن كنتن فى بيت امرأة العزيز ، وقد راودته عن نفسه يومذاك؟! فهل كان يوسف من النوع الذى يميل إلى المجون ، ويغازل النساء؟! أم أنه عف شريف ؟! فأجبنه جميعا قائلات : ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ لقد كان يوسف عفا شريفا ، ذا خلق كريم. . كان فى ذاك اليوم فى قمة السمو والترفع، كان كأنه مَلَكٌ طاهر ، بين نساء متحللات من قيود العفة والشرف. . إن يوسف برىء من أى صفة ذميمة أيها الملك.

امرأة العزيز تعترف أمام الملك

﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾

لكنْ زليخا أعلنت فى سمع كل الحاضرين ٧١
الحق سوف أقوله : كى أنصف المستضعفين ٧٢
فأنا الذى راودت يوسف ، أطلب الفعل المشين ٧٣
ولقد أبى أن يستجيب ، فكان ذا خُلق ودين ٧٤
فليطمئن عزيز مصر ، وليكن فى الموقنين ٧٥

لقد استمع الملك إلى النسوة اللاتى جمعهن فى قصره، وسألهن عن يوسف الصديق ،وما يعرفنه عن سلوكه وأخلاقه ! لقد أجبنه كلهن بالثناء والمدح على يوسف ، بما هو أهل له.. بيد أن امرأة العزيز لم تشترك فى الحديث مع النسوة،لا مدحًا ولا ذمًا، فاتجه الملك نحوها ـ وقد كان يعرفها لأنها زوجة رئيس وزرائه ـ اتجه نحوها كأنه يستنطقها،والنسوة كلهن أيضًا اتجهن نحوها، ينتظرن منها أن تبوح بما هى منطوية عليه.. فماذا عساها أن تقول؟! الواقع أن امرأة العزيز ، سبق أن اعترفت بمراودتها ليوسف الصديق، وكان ذلك أمام هؤلاء النسوة .. إذن فهى لم تكن فى حاجة إلى شجاعة لكى تكرر اعترافها، لاسيما أمام ملك البلاد الذى يبحث عن الحقيقة، بغية إنصاف إنسان ظُلم ، هو يوسف الصديق ،ذلك الإنسان الذى أحبته حبًا ملك عليها كل مشاعرها وحواسها ، كيف لا ؟! وهى التى أعلنت قبلاً أمام هؤلاء النسوة قائلة : ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)** ﴾ .

ولا غرو فهى لا تزال تحب يوسف،بيد أن حبها له اليوم،غير حب الأمس..لأن حب الأمس كان حبا جسديًا شهوانيًا ، أما حب اليوم،فهو حب الاحترام، حب الإنسان الذى احتقر كل وسائل الإغراءات الجسدية.. حب الإنسان الذى يرفض الاستجابة لنداء الجسد جعلها الآن تبدو شريفة،لم تقترف إثمًا ولا فاحشة،قالت: ﴿ **أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)** ﴾.

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله »: شهادة كاملة بإثمها هى، وبراءته ونظافته وصدقه هو،شهادة لا يدفع إليها خوف أو خشية،أو أى اعتبار آخر،يشى السياق القرآنى بحافز أعمق من هذا كله ، حرصها على أن يحترمها الرجل الذى أهان كبرياءها الأنثوية ، ولم يعبأ بفتنتها الجسدية ، ومحاولة يائسة لتصحيح صورتها فى ذهنه.لا تريده أن يستمر على تعاليه واحتقاره لها كخاطئة ، تريد أن تصحح فكرته عنها.

امرأة العزيز تبرأ من خيانة زوجها

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾

ما خنته فى عرضه ، والله خير الشاهدين ٧٦
لا أدعى أنى برئت من الذنوب الأصغرين ٧٧
لكننى أخشى الخيانة ، أو سلوك الخائنين ٧٨
فالخائنون فلن يكونوا فى عداد المهتدين ٧٩

وتواصل زوج العزيز ـ زليخا ـ اعترافها أمام الملك وجمع النسوة ، بعد أن برأت يوسف من الاتهام الذى ألصق به ، ولأجله أدخل السجن ظلمًا فتقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ تقصد زوجها ، أى أنا أعترف بذنبى، فأنا التى راودت يوسف عن نفسه،لكن أبى ورفض . . من ثم فليطمئن زوجى، فأنا ما خنته فى شرفه ، ولم أدنس عرضه ، فالجريمة الكبرى التى يندى لها جبين الشرف والعفة لم تقع ، ولا غرو فأنا لا أدعى البراءة ، بل أقول الحق برغم مرارته ، فالنفس تدعو دائما إلى السوء. . وقد كنت آنذاك شابة فى ريعان الشباب ، وقد لعب الشيطان برأسى، فزين لى ما كان محرمًا . ولكن حمدًا لله، أننى ما قارفت الفاحشة ، فقد كان يوسف بعفته وطهارته عونا لى على أن أظل عفيفة طاهرة ، وذلك فضل علىّ اعترف به .

قال ابن كثير فى قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾: تقول :اعترفت بهذا على نفسى، ذلك ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفت، ليعلم أنى بريئة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا فى تفسيره « المنار » فى قوله تعالى :﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾:أى ذلك الإقرار بالحق له ، والشهادة بالصدق الذى علمته منه، ليعلم الآن ـ إذ يبلغه عنى ـ أنى لم أخنه بالغيب منذ سجن إلى الآن،بالنيل من أمانته، أو الطعن فى شرفه وعفته،بل صرحت لجماعة النسوة بأننى راودته فاستعصم، وهو شاهد، وها أنذا أقر بهذا أمام الملك وملئه وهو غائب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ من النساء والرجال،بل تكون عاقبة كيدهن الفضيحة والنكال،ولقد كدنا له، فصرف ربه عنه كيدنا ، وسجناه فبرأه وفضح فكرنا ، حتى شهدنا له فى هذا المقام السامى على أنفسنا .

من الذى قال: وما أبرئ نفسى؟! يوسف أم المرأة؟!

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

أما النفوس فإنها من صنع رب العالمين ٨٠
هى للهوى والسوء تدعو بئس دعوى المفسدين ٨١
لكننى لم أقترف لكبيرة كالماجنين ٨٢
الله يغفر كل ذنب إن يشأ للتائبين ٨٣

ها نحن أولاء لا نزال مع امرأة العزيز ـ زليخا ـ وهى تتحدث بكل صراحه أمام ملك مصر، معترفة على نفسها أنها هى التى راودت يوسف عن نفسه، فأبى ورفض فى عفة وتسام، ثم تقول: ولئن كنت فى هذا المقام أبرئ يوسف من تلك الجريمة التى لم يكن هو فيها سوى ضحية، فإننى فى الوقت نفسه، لا أبرئ نفسى، ولا غرو فالنفس تميل إلى الهوى، وتأمر وتلح على صاحبها بفعل السوء، إلا من عصمه الله، وأراد له الخير.

قال ابن كثير فى تفسيره فى قوله تعالى ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾: تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب، بسياق القصة ومعانى الكلام، وقد حكاه الماوردى فى تفسيره، وانتدب لنصره العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة.

قال الشيخ محمد الصابونى فى تفسيره « مع أعلام المفسرين » فى قوله تعالى ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾: أى لا أزكى نفسى ولا أنزهها، فإن النفس البشرية ميالة إلى الشهوات، قال يوسف على وجه التواضع، قال الزمخشرى: أراد أن يتواضع لله، ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكيا، وبحالها معجبًا ومفتخرًا ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أى إلا من رحمه الله بالعصمة ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى عظيم المغفرة واسع الرحمة.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآن»: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ إنها نفس بشرية، من شأنها أن تميل مع الهوى، وأن تغرى بالسوء ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أى إلا ما كان من رحمة الله، ودفعه هذا السوء عن عباده المخلصين ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يتجاوز عن سيئات المسيئين، الذين يجيؤون إليه تائبين، هذا من قول يوسف، فيعترف على نفسه بأنه قد كان منه هم.